

الفصل الثالث

التفكير السلبي المرفوض

- تمهيد.
- عقبات في طريق التفكير الصحيح.
- التفكير الأسطوري.
- التفكير الخرافي.
- التفكير التسلطي.

تمهيد :

يوجد نوعان من التفكير Types of Thinking هما: التفكير غير العلمي (أنماط التفكير غير الصحيحة)، والتفكير العلمي (أنماط التفكير الصحيحة)، وأنماط التفكير غير الصحيحة تعكس نوعاً من التفكير لا يعتمد على العلة أو المنطقية وتمثل أهم أنماطه فى الآتى:

* التفكير العشوائى: وهو الذى يقوم على المحاولة أو الخطأ عندما يتعرض الفرد لمشكلة فوق مستوى قدراته.

* التفكير الذاتى أو الخرافى Subjective or Unrealistic Thinking: وهو الذى يعتمد فى عناصره على حقائق أو وقائع غير صحيحة، حيث يمارس بعض الأفراد هذا النوع من التفكير بأساليب غير منطقية لحل مشكلات طبيعية. وقد يدور حول أشياء ليس لها وجود موضوعى حقيقى فى غير خيال وأوهام الفرد الذى يفكر فيها من خلال عالمه الذاتى الشخصى، مثل: أحلام اليقظة والأوهام، ولذلك يكون سلبياً، ويدل على مظهر من مظاهر الأمراض النفسية.

ورغم ما تقدم، فى حالات نادرة جداً، يمكن أن يكون التفكير الذاتى أو الخرافى إيجابياً ومثمراً، إذا قاد الفرد إلى تحقيق إبداعات وإنجازات غير مسبوقه.

* التفكير التقليدى: وهو الذى يستمد عناصره من التقاليد والأعراف السائدة فى المجتمع.

* التفكير الاعتمادى: وهو الذى يعتمد الفرد فيه على الآخرين ليفكروا نيابة عنه.

أولاً: عقبات فى طريق التفكير الصحيح:

يقول جواهر لال نهرو (١٨٨٩-١٩٦٤) - وهو أول رئيس وزراء للهند بعد الاستقلال- الآتى:

«العلم وحده هو القادر على حل مشكلات: الجوع والفقر والمرض والجهل، والخرافات والعادات والتقاليد البالية، والثروات الهائلة الآيلة إلى النضوب، والبلدان الغنية التى تتصور شعوبها جوعاً...»

وهل هناك من يجزؤ على تجاهل العلم؟ فنحن نلتمس العون منه فى كل أمر... ولا وجود فى المستقبل إلا للعلم، ولكل من يناصر العلم».

إذا، العلم هو أنبل مساعى العقل البشرى، ومن معينه ينبع تيار لا ينقطع أبداً من الاكتشافات الخيرة، كما أنه جعل المجتمع أكثر إنسانية وتطوراً وتقدماً ورفاهية.

وفى هذا الشأن، خصص الفيلسوف كارل بوبر كثيراً من تأملاته للطرائق العلمية ولتطبيقاتها على المجتمع، لقد أثبت أن العلم يستطيع على الأقل أن يسهم إسهاماً متواضعاً فى توجيه الناس نحو موقف علمى من المسائل السياسية.

ولكن الغريب -بحسب ما رواه هارتن جاودنو- أن الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريغان كان يستشير المنجمين بانتظام قبل اتخاذ قراراته المهمة. كما أن بعض أعضاء هيئة التدريس فى جامعة كمبريدج -وهى من أعرق الجامعات فى المملكة المتحدة (بريطانيا) كانوا يعتقدون أن الساحر جيلر Geller أنه قادر على لى الملاعق بنظرة، ويمكنه -أيضاً- أن يعطل قوانين الفيزياء.

وإذا عدنا مرة أخرى إلى بوبر، نجد أنه يجادل بأن المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية يجب أن يتم تناولها بالنهج البراجماتى (الذرائعى) نفسه، بدلا من اتباع نهج دوجماتى Dogmatic اتباعى.

ومن منطلق أن العلم هو انتصار العقل، قال برتراند رسل: «إن العقلانية، باعتبارها معيار الحقيقة العمومى واللاشخصى، هى على درجة قصوى من الأهمية، ليس فحسب فى العصور التى تسود فيها بلا منازع، بل أيضاً، وحتى أكثر، فى الأزمنة الأقل حظاً والتى تكون فيها مزدرة ومرفوضة باعتبارها حلماً عقيماً لمن لا يملكون الرجولة الكافية لأن يقتلوا عندما لا يستطيعون أن يكونوا موافقين»^(١).

وعلى الرغم من الأهمية العظمى والمتناهية القوة للعلم، فيمكن أن يكون العلم من أدوات التدمير الشامل، ليس لحياة الفرد فقط، بل أيضاً لمصير الإنسانية جمعاء، وخاصة إذا استخدم العلم بأساليب شيطانية فجّة، فاعلم دون ضمير هو موت الروح.

ولكن: بقدر ما نجد العلم فى وقتنا الحالى قد أصبح يمثل الفعالية العظمى التى تشكل وتعيد تشكيل العقل والواقع المعاصرين، يوماً بعد يوم وإلى غير نهاية، وأيضاً بقدر ما بدا العلم الحديث عملاقاً، ويزداد تحملقاً بصورة مطردة، فانبهر به أهله ورجالاته عصره^(٢)، نجد -للأسف- أن قطاعاً عريضاً من العلماء أنفسهم - رغم إنجازاتهم العلمية المثمرة... يعتقدون فى المجهول، ويجرون وراء الطالع، ويحاولون استشراف المستقبل بأساليب غير علمية، وغير مقبولة دينياً، كما أنهم يتحمسون لقيم تراثية بالية عفا عليها الزمن، ولم تعد مناسبة للعصر الحالى.

حقيقة، لقد أفتتن بعض العلماء بالعلم ذاته، وألقوا الضوء على ظواهره التى غدت باهرة، وتأملوا فى رونق جلال وجبروت شموخ الاكتشافات العلمية، ولكن ذلك لم يحول دون توجيه تفكيرهم وإهتماماتهم نحو أمور ساذجة لا يقبلها العقل ويرفضها المنطق.

إذا كان هذا حال العلماء، فما بالنا بالأفراد العاديين غير المتعلمين، وأيضا ما بالنا بالطلاب غير الناضجين. إن الإنسان عندما يفتقر لمقومات التفكير غير الصحيح، يمكن استغلاله أسوأ استغلال، حيث يمكن استخدامه كأداة طيعة لتنفيذ المخططات الإجرامية والإرهابية، أيضاً، عندما يفقد السيطرة على آليات تفكيره، رغم أنه كامل الأهلية والإدراك، يمكن أن يخضع لأية مؤثرات خارجية أو داخلية مدمرة له، وللآخرين، وللمجتمع نفسه. وهنا، يجب طرح السؤالين المهمين التاليين:

(١) ما الأسباب التي حالت دون اكتساب الفرد بعامة، والطلاب بخاصة مقومات التفكير الصحيح؟

(٢) ما دور التربية في إزالة المعوقات والمقبات لتمهد الطريق أمام الطالب لممارسة التفكير الصحيح؟

وبالنسبة للسؤال الأول، يجيب عنه فؤاد وكريها، فيقول^(٣):

العلم ظاهرة متأخرة في تاريخ البشرية. وسواء أكننا من القائلين بأن العلم بمعناه الصحيح، ظهر منذ أربعة قرون في عصر النهضة الأوروبية، أو بأنه يرجع إلى العصر اليوناني القديم حين اهتدى الإنسان، لأول مرة، إلى منهج البرهان النظري والمنطقي على قضاياها، أو حتى إلى الحضارات الشرقية الأقدم عهدا، التي تركت لنا تراثا يدل على وجود معارف متراكمة لديها تستحق اسم العلم - أقول أننا سواء أكننا من القائلين بهذا الرأي أو ذاك، فلا بد لنا من الاعتراف بأن البشرية عاشت قبل ذلك عشرات الألوف من السنين دون أن يتكشف نشاطها عن تلك الظاهرة التي نطلق عليها اسم العلم. ولو كنا ممن يتقيدون بالمعنى الدقيق لكلمة العلم، ويشترطون لكي تكون المعرفة علما أن تكون قد اكتسبت مناهج منضبطة تجمع بين الملاحظة الدقيقة والفرس العقلية والتجريب التطبيقي، وتصطنع الرياضة لغة للتعبير عن قوانينها، لوجب علينا عندئذ أن نشبه البشرية بإنسان عاش سبعين سنة من عمره أميا، ولم يتعلم القراءة والكتابة إلا في اليومين الأخيرين من حياته!

بل إننا نستطيع أن نقول أن البشرية، منظورا إليها ككل، ما زالت بعيدة عن اكتساب جميع سمات التفكير العلمي، وما زال هذا التفكير يقتصر فيها على مجتمعات معينة، وحتى في هذه المجتمعات يتعرض العلم لتشويهات عديدة، قد تظهر حتى بين المتخصصين فيه.

فهل يعني ذلك أن العقل الإنساني ظل خلال هذا التاريخ الطويل خاملا؟ من المؤكد أن الوعي والتفكير العقلي والنشاط الروحي لم تتوقف لحظة واحدة طوال تاريخ الإنسان، بل إنها تكاد تكون مرادفة لهذا التاريخ. فمنذ أبعاد العصور أنتج الإنسان فنونا كان بعضها

رقيقاً، كما أنتج أشعاراً وحكمًا، وعرف العقائد والشرايع وكون لنفسه نظامًا اجتماعية وأخلاقية. أى أن عقله يعمل بلا انقطاع، فلماذا إذن لم ينتج العلم إلا فى وقت متأخر؟ لقد آثر الإنسان، طوال الجزء الأكبر من تاريخه، ألا يواجه الواقع مواجهة مباشرة، وأن يستعيز عنه بأخيلته أو صورته الذاتية. وهذا أمر لا يصعب فهمه: إذ أن المواجهة المباشرة للواقع فيها صعوبة ومشقة، وتحتاج منه إلى بذل جهد كبير. وعليه أن يروض ذاته على أطراح ميولها الخاصة جانباً، وقبول الظواهر على ما هى عليه، ثم استخلاص القانون الكامن من وراء هذه الظواهر، وهو أمر يقتضى مستوى عالياً من التجريد. وهكذا يمكن القول أن اتجاه الإنسان نحو العلم ينطوى على قدر كبير من التضحية: التضحية بالراحة والهدوء والاستسلام للخيال السهل الطليق، كما ينطوى على عادات عقلية فيها قدر كبير من الصرامة والقسوة على النفس. ولقد قال البعض أن العلم لم يبدأ إلا مع «الرياضة». وأحسب أن هذه العبارة تغدو أبلغ وأدق فى التعبير عن البداية الحقيقية للعلم لو فهمنا لفظ «الرياضة» هذا، لا بمعنى أنه علم الأرقام والكم فحسب، بل أيضاً بالمعنى النفسى والأخلاقي، أى بمعنى رياضة «الروح أو النفس» على اتباع نهج شاق من أجل فهم الظواهر بالعقل والمنطق الدقيق.

وبعبارة أخرى فإن العلم يظهر منذ اللحظة التى يقرر فيها الإنسان أن يفهم العالم كما هو موجود بالفعل، لا كما يتمنى أن يكون. ومثل هذا القرار ليس عقلياً فحسب، بل هو بالإضافة إلى ذلك، وربما «قبل» ذلك، قرار معنوى وأخلاقي. ولا بد للعقل البشرى أن يكون قد تجاوز مرحلة الطفولة، التى تصور فيها كل شىء وفقاً لأمانينا، إلى مرحلة النضج التى تتيح لنا أن نعلو على الخلل بين الواقع والحلم أو الأمنية. وهذا مستوى لا يصل إليه الإنسان إلا فى مرحلة متأخرة من تطوره.

أما قبل هذه المرحلة فكان من الطبيعى أن يستعيز الإنسان عن العلم بالحلم، دون أن يدرك أنه يحلم، وكان من الطبيعى أن تظل البشرية كلها، طوال الوف عديدة من السنين، وفى جميع أرجاء الأرض بلا استثناء، مبتعدة عن رؤية الواقع وفهمه على ما هو عليه. وخلال هذه الفترة «الحالة» كان الأدب والفن هما المظهر الرئيس لنشاط الإنسان الروحي. وفى الآداب والفنون يهتم الإنسان بمشاعره الذاتية أكثر مما يهتم بالعالم المحيط به، وإذا اتجه إلى هذا العالم الخارجى فإنما يتجه إليه من خلال أحاسيسه الخاصة وميوله الذاتية، فلا يرى إلا مرآة تنعكس عليها انفعالاته وعواطفه.

بل إننا نستطيع أن نقول أن الفلسفة ذاتها، حين سارت فى طريقها الخاص بوصفها نشاطاً عقلياً خالصاً عند اليونانيين، كانت تهتم باتساق بنائها الداخلى، وبتماسك التركيب

العقلى الذى يكونه الفيلسوف، أكثر مما تهتم بالعالم الواقعى . وهذه سمة يمكن استنتاجها بوضوح مما عرضناه من قبل عن الصفات المميزة للعلم النظرى، (المختلط بالفلسفة) عند اليونانيين. وحين كانت الفلسفة تتحدث عن عالم الواقع، كانت فى معظم الأحيان تصفه بأنه خداع، بل تعد الحواس خداعة لأنها تختص بإدراك عالم مادى من طبيعته الا يكون موضوعاً لمعرفة صحيحة.

وهكذا ظل الإنسان طويلاً يستعيز عن العلم بخيالاته وانفعالاته وحده وأفكاره المجردة، ولم يصطنع منهاجاً يتيح له الاتصال المباشر بالواقع، عن طريق الجمع بين العقل والتجربة، إلا فى مرحلة متأخرة من تاريخه. فلا بد إذن أن عقبات أساسية حالت دون تحقيق هذا الاتصال المباشر بين الإنسان والعالم عن طريق العلم. ولا بد أن الإنسان قد بذل جهوداً كبيرة حتى استطاع أن يسيطر على عقله، ومن ثم يسيطر على العالم. ولا بد أن تاريخ الناشط الروحى والعقلى للإنسان كان تاريخاً للأخطاء والأوهام التى تغلب عليها الإنسان بمشقة، بقدر ما كان تاريخاً لحقائق اكتسبت بالتدرج. فما هى هذه العقبات التى أخرت ظهور العلم، والتى لاتزال تشوه صورة المعرفة العلمية حتى يومنا هذا عند فئات كثيرة من البشر؟

لقد ظلت الأسطورة تحتل المكان الذى يشغله العلم الآن طوال الجزء الأكبر من تاريخ البشرية.

وترجع أسباب انتشار الفكر الأسطورى إلى أنه كان يقدم -فى إطار بدائى- تفسيراً متكاملًا للعالم. فالأساطير القديمة تعبر عن نظرة الشعوب التى اعتنتها إلى الحياة والطبيعة والعالم، وتقدم تفسيراً يتلاءم مع مستوى هذه الشعوب ويرضيها ارضاء تاماً. وهى فضلاً عن ذلك تجمع بين الطبيعة والإنسان فى وحدة واحدة، يزول فيها الحد الفاصل بين هذا وذاك، بحيث يبدو العالم متلائماً مع غايات الإنسان محققاً لأمانه، وهى -كما قلنا منذ قليل- سمة رئيسة من سمات الفكر غير الناضج فى عصور طفولة البشرية.

وبالنسبة لإجابة السؤال الثانى، الذى يتمحور حول دور التربية فى إزالة العقبات التى تحول دون أن يكون تفكير الطالب تفكيراً صحيحاً دقيقاً، ينسب بالعلمية الخالصة، لمواجهة ظروف عصر العلم والتكنولوجيا، ولما كبت متطلبات التدفق المعلوماتى، نقول:

إن المعرفة البشرية تتضاعف، لدرجة أن السنوات العشرة الأخيرة من القرن الماضى خلفت معرفة علمية أكثر مما خلفه التاريخ البشرى كله، ناهيك عن التطور الهائل الذى حدث فى قدرة الكمبيوتر وفى إمكانات إنترنت، والذى حدث فى سلاسل الـ DNA التى يتم تحليلها مرة كل عامين.

وفي هذا الصدد يقول ميتشو كاكو: «وفي كل يوم تقريباً تبشرنا العناوين الرئيسية للصحف بتطورات جديدة فى مجالات الكمبيوتر والاتصالات والتكنولوجيا واستكشاف الفضاء. وفى أعقاب هذه الثورة التكنولوجية تنقلب صناعات وأساليب حياة بكاملها رأساً على عقب لتؤدى إلى نشوء أخرى. غير أن هذه التغيرات السريعة والمدهشة ليست كمية فقط، إنها آلام المخاض لمولد عصر جديد»^(٤).

تأسيساً على ما تقدم، يجب أن يكون للتربية دوراً مهماً وفاعلاً من خلال منظورين، أولهما يتمثل فى تهيئة الطالب علمياً وجدانياً ونفسياً وانفعالياً ليقبل دور العلم فى حياته، وثانيهما يتمثل فى إكساب الطالب مقومات التفكير الصحيح من خلال إزالة العقبات التى تعترض سبيل تحقيق هذا الهدف النبيل، وعن طريق تأكيد أهمية الدور الرائع للتفكير الصحيح فى حياة الإنسان.

ويمكن تحقيق ما سبق ذكره إجرائياً، بتنفيذ الخطوات التالية:

- * أن تبرر التربية أهمية التصدى للروح السلبية السائدة بين الطلاب، وأن تعمل جاهدة من أجل إذكاء روح النضال الاجتماعى، بصفته مطلباً أساسياً ومقوماً لا بديل له للحفاظ على كيانهم.
- * أن تصدى التربية بصورة منهجية وفعالة لحملة الغزو الثقافى الذى يحشد وسائل معلوماتية عديدة وحديثة من أجل تشويه تراثنا والنيل من قضايانا.
- * أن تهتم التربية بالطفل والمرأة أساساً، بحيث تحقق للطفل احتياجاته الأساسية، وتحقق حلولاً لقضايا المرأة، بما يجعلها فى موضع المساواة مع الرجل فى الحقوق والواجبات.
- * أن تركز التربية على أمور التنمية التعليمية التعلمية من منطلق ثقافى واجتماعى، له جذوره القومية ومنطلقاته العالمية.
- * أن تؤكد التربية أهمية التجاوب والتواكب مع مطالب عصر المعلومات، فى تحقيق ممارسة أوسع وأفضل للإدارة التربوية الديمقراطية، لتقوم على أساس مشاركة جميع الأطراف.
- * أن تعمل التربية على تحديث ذاتها - وقد يصل الأمر إلى تغيير نمطها القائم بالكامل - من أجل خلق الإنسان المبدع القادر على الإسهام الفعال فى عالم مغاير بشدة.
- * أن تحقق التربية حملات قسومية للتعليم العلاجى، وأن تقوم بإعادة تأهيل المعلمين والطلاب، على حد سواء، لتقليل حجم الهادر البشرى بسبب التخلف المعلوماتى.
- * أن تعمل التربية جاهدة من أجل إنشاء جسور التواصل بين المؤسسات التعليمية والواقع المعاش خارجها.

- * أن تؤكد التربية أهمية استخدام الكمبيوتر ونظم المعلومات فى المدارس، كوسيلة لتقديم خدمات تعليمية أفضل للمناطق النائية والفئات المستضعفة.
- * أن تهيم التربية لغتنا القومية من أجل مواكبة متطلبات تكنولوجيا المعلومات، ومن أجل تحقيق التكامل مع مطالب عصر المعلومات، دون أن يكون ذلك على أساس المساس بجوهرها.
- * أن تستغل التربية الوسائل المتاحة لدفع وتحديث حركة التنظير للفرى، ولشوير تعليم وتعلم اللغة العربية، وللإهتمام بنظم الترجمة الآلية التى تمثل أساساً ضرورياً للاحقة التطور العلمى والتقنى والفكرى.
- * أن تستثمر التربية عقول الطلاب بفاعلية فى إطار سياسات علمية وتكنولوجية متقدمة ورفيعة المستوى.
- * أن تدرك التربية أن مجتمع المعلومات يوفر مناخاً مواتياً لإعداد الطلاب ذوى العقول القوية، الذين يعملون بجهد ودأب، ويقبلون التحدى مهما عظم شأنه.
- * أن تعدل التربية من تنظيماتها وأساليب إدارتها وأدائها، بما يحقق لها مرونة كافية للتكيف مع المتغيرات الحادة التى يفرضها مجتمع المعلومات.
- * أن تشجع التربية الطلاب على المشاركة فى العمل الإدارى، سواء أكان ذلك على مستوى المدرسة ككل أم على مستوى الفصل الواحد.
- * أن تخلق التربية مناخاً مشجعاً على تطور أفكار الطلاب، ويعمل على تحقيق تعلمهم بكفاءة عالية^(٥).

وجدير بالذكر أن التربية قد تنجح فى تحقيق مقاصدها المأمولة، التى سبق ذكرها، وبذلك تزيح عقبات كؤود تقف كسد هائل أمام اكتساب الطلاب أصول التفكير الصحيح وممارسته. ورغم ذلك، سيظل التفكير غير الصحيح له وجود حقيقى عند بعض المثقفين والمعلمين على السواء. حقيقة، قد يكون هؤلاء المثقفين والمعلمين ممن يمارسون التفكير غير الصحيح من القلة، بحيث يتوهون فى الزحام، ولكن يظل وسيظل لهم وجود فعلى، لذلك من المهم شرح بعض أخطاء التفكير غير الصحيح بشئ من التوضيح والتفصيل، وذلك ما يتحقق فى الحديث التالى:

ثانياً : التفكير الأسطورى :

إن التفكير الأسطورى هو تفكير المصور التى لم يكن العلم قد ظهر فيها بعد، أو لم يكن قد انتشر إلى الحد الذى يجعل منه قوة مؤثرة فى الحياة وفى طريقة معرفة الإنسان للعالم. فالأسطورة، كانت تقوم بوظيفة مماثلة لتلك التى أصبح يقوم بها

العلم بعد ذلك، وكانت هي الوسيلة الطبيعية لتفسير الظواهر فى العصر السابق على ظهور العلم.

أيضاً، الأسطورة غالباً ما تكون تفسيراً «متكاملاً» للعالم أو لمجموعة من ظواهره.

وفى العصور البدائية والقديمة كانت الأسطورة تمثل نظاماً كاملاً فى النظر إلى العالم والإنسان، وكان هذا النظام يتسم، فى كثير من الأحيان، بالاتساق والتماسك الداخلى.

وأهم مبدأ ترتكز عليه الأسطورة هو المبدأ الذى يعرف باسم «حيوية الطبيعة Animism». . والمقصود بهذا المبدأ هو أن التفكير الأسطورى يقوم أساساً على صيغ الظواهر الطبيعية، غير الحية، بصبغة الحياة، بحيث تسلك هذه الظواهر كما لو كانت كائنات حية تحس وتتفاعل وتتأثر أو تتناثر مع الإنسان. ولو فكرنا ملياً فى أية أسطورة فسوف نجد أنها تعتمد على هذا المبدأ اعتماداً أساسياً. فأسطورة إيزيس وأوزيريس، التى كان المصريون القدماء يفسرون بها فيضان النيل، هى اضافة لطابع الحياة والانفعالات الاحياء على ظاهرة طبيعية هى الفيضان. وأسطورة خلق العالم على يد سلسلة الآلهة التى تبدأ من زيوس، عند اليونانيين، تقوم على هذا المبدأ نفسه، إذ يكون لكل جزء من الطبيعة إله خاص به، ويسلك هذا الإله سلوكاً مشابهاً لسلوك البشر. وقل مثل هذا عن أية أسطورة عند أى شعب قديم أو بدائى.

ولكى ندرك مدى الاختلاف بين هذه النظرة الأسطورية إلى العالم وبين النظرة العلمية الحديثة، ينبغى أن نشير إلى أن مطلب العلم، فى الوقت الحاضر، هو المطلب المضاد: فعلى حين أن الأسطورة تعنى تفسير غير الحى عن طريق الحى، فإن العلم يسعى إلى تفسير الحى عن طريق غير الحى. أى أن العلم يحاول أن يجد لظواهر الحياة تفسيراً من خلال عمليات فيزيائية وكيميائية، وقد يتفاوت نصيبه فى النجاح من مجال إلى آخر، ولكن ما يهمنى هو الهدف، الذى يقف على النقيض من هدف التفسير الأسطورى للظواهر.

ولقد كان من الطبيعى أن يسود هذا النوع من التفسير الأسطورى فى عصور طفولة البشرية، إذ أن أول ما يتوقع من الإنسان، حين يحاول أن يفهم العالم المحيط به، هو أن يفهمه فى ضوء الحالات التى يمر بها هو ذاته، لأن المشاعر والانفعالات هى أمور نحس بها فى أنفسنا مباشرة، ولا تحتاج إلى تعليم أو تدريب خاص. ومن هنا فقد كان طبيعياً أن يصيغ الإنسان، فى أول عهده بالمعرفة، ظواهر الطبيعة بصبغة تلك الأحاسيس والخبرات التى يشعر بها فى نفسه شعوراً مباشراً، فيتصورها كما لو كانت تنفعل وتفرح وتغضب

وتحب وتكره مثله . وهكذا علل البشر كسوف الشمس فى إطار التفسير الاسطورى، بأن الشمس غاضبة، أو بأنها «مكسوفة» (كما تغطى المرأة وجهها حين «تنكف»). ومارال لأمثال هذه التفسيرات وجوده فى مجتمعاتنا الشرقية حتى اليوم.

ومن الجدير بالذكر أن مبدأ «حيوية الطبيعة»، الذى قلنا أن الفكر الاسطورى كله يركز عليه، ظل عقبة فى طريق العلم فى أوروبا ذاتها حتى القرن الثامن عشر على الأقل، إن لم يكن بعد ذلك. فقد كانت ظاهرة الكهرباء تعد دليلا على وجود مبدأ حيوى يتغلغل فى الأجسام غير الحية. كذلك كانت المغناطيسية تعد مظهراً لوجود الحياة فى الطبيعة. بل أن بعض علماء أوروبا المشهورين ظلوا، حتى القرن الثامن عشر، يقولون بإمكان الاهتداء إلى ذكور وإناث فى المعادن، وكان ذلك يبعث فى نفوسهم أملا كبيرا فى أن يأتى اليوم الذى يكتشف فيه الذهب المذكر والذهب المؤنث، حتى يمكن تحقيق «التكاثر» فى هذا المعدن النفيس! بل إن كفاح العالم الفرنسى الكبير «باستير Pasteur» ضد مبدأ التولد التلقائى *Genération Spontanée*، وهو المبدأ الذى كان يُعتقد وفقا له أن الكائنات الحية الدقيقة، كالديدان وغيرها، تتولد فى بعض الأجسام الطبيعية «تلقائيا» دون أن تكون قد تولدت عن كائنات حية مماثلة - أقول أن هذا الكفاح المرير الذى خاضه «باستير» ضد أكبر علماء عصره يدل على أن بقايا مبدأ «حيوية الطبيعة» ظلت راسخة فى أذهان العلماء الأوربيين حتى وقت متأخر من القرن التاسع عشر. ولايعنى ذلك أن العلم الأوروبى كان متخلفا أو متوقفا عند مرحلة بدائية، بل أن هناك كسورا عظيمة كانت تتحقق منذ القرن السابع عشر. وكل ما تعنيه هو أن كشف الحقائق العلمية يتم، فى كثير من الأحيان، فى إطار تكتفه كثير من عناصر الخطأ.

ولعل من أوضح الأدلة على أن الفكر الاسطورى ظل محتفظا بمكانته فترة أطول مما ينبغى، استمرار ذلك النوع من التعليل المسمى بالتعليل «الغائى Teleological» للظواهر، أعنى تفسير ظواهر الطبيعة من خلال «الغايات» التى تحققها هذه الظواهر للبشر. فنحن نبصو، مثلا، أن الشمس تطلع كل صباح لكى تدفئ أجسامنا، وأن القمر والنجوم تظهر كل مساء لكى تنير طريقنا أو تهدي التائهين منا فى الليل. ونحن نعتقد أن المطر ينزل لكى يروى الزرع، وأن رقبة الزرافة طويلة لكى تستطيع أن تصل إلى أوراق الأشجار العالية وتتغذى بها. وهكذا نتصور أن للحوادث الطبيعية أغراضا وغايات، ونعتقد أن التفسير الحقيقى لهذه الحوادث إنما يكمن فى تلك الأغراض والغايات.

وإذا كان مبدأ «حيوية الطبيعة»، أى وصف الطبيعة بصفات الكائنات الحية، ولاسيما الإنسان، هو - كما قلنا من قبل - المبدأ الاساسى الذى يقوم عليه الفكر الاسطورى، فمن السهل أن ندرك أن فكرة «الغائية» فى تفسير الطبيعة إنما هى تطبيق مباشر لهذا المبدأ

أو امتداد له. ذلك لأن الغايات تقوم بدور أساسى فى عالم الإنسان. وهى فى هذا العالم تودى وظيفة طبيعية لا يستطيع أحد أن يزعم بأنها تتعارض مع العلم. فالإنسان يوجه سلوكه بالفعل نحو غايات معينة، أى أنه يستذكر دروسه لكى ينجح، ويطهو الطعام لكى يأكل، ويخرج إلى الشارع لكى ينتزه. ولو سألت هذا الشخص، فى الحالات السابقة: لماذا ذكرت؟ أو لماذا خرجت؟ إلخ... لكان الجواب الطبيعى: لكى أفعل كذا. أى أن التعليل الطبيعى لتصرفاتنا، فى هذه الحالات يأتى عن طريق الإشارة إلى الغاية منها. ومن هنا كان للغائية دور أساسى فى المجال البشرى، وكان من الممكن تعليل كثير من أفعال الإنسان عن طريق الغايات المقصودة منها.

ولكن الخطأ الذى وقع فيه المفكرون، والعلماء أنفسهم أحياناً، خلال عصور طويلة ماضية هو أنهم نقلوا هذه الفكرة بحذافيرها من مجال الإنسان إلى مجال الطبيعة، وتصوروا أن الحوادث الطبيعية يمكن تعليلها بغاياتها، قياساً على ما يحدث فى عالم الإنسان. وهكذا فإننا إذا سألتنا: لماذا يسقط المطر؟ كان رد أنصار التفكير الغائى هو: لكى يروى الزرع. وإذا سألتنا: لماذا يحدث الزلزال أو الفيضان؟ كان الرد: لكى يعاقب أناسا ظالمين. وهكذا يتصور هؤلاء أن مسالك الطبيعة مماثل لمسالك الإنسان، فيقعون بذلك فى شرك التفكير الأسطورى.

والواقع أن الطبيعة لاتعرف «غايات» بالمعنى الذى نفهم به نحن هذا اللفظ، بل إن حوادثها تحكمها الضرورة فحسب، ولا يحدث فيها شيء، كسقوط المطر أو وقوع فيضان، إلخ، إلا إذا توافرت الأسباب الطبيعية المؤدية إليه. وعندما تتوافر هذه الأسباب يكون حدوث الظاهرة أمراً حتمياً. أما الغايات فإننا نحن الذين نخلفها، ونستغل من أجلها حوادث الطبيعة. فنحن قد وجدنا المطر بالفعل ثم اكتشفنا بالتجربة فائدته فى رى الزرع، فخلقنا هذه الغاية له، أما المطر ذاته فكان سيسقط سواء روينا به زرعنا أم لم نرويها. وقس على ذلك بقية الحالات.

والدليل الواضح على اخفاق التعليل الغائى للظواهر الطبيعية، هو أن هذا التعليل كثيراً ما يتخبط ويتناقض: ففي الوقت الذى يعتقد فيه البعض أن المطر يسقط من أجل رى زراعته، يرى البعض الآخر أنه يسقط لكى يروى ظمأه أو ظمأ ماشيته، ويرى غيرهم أنه يسقط لكى يصنع بركة يستحم فيها، بينما يرى صاحب الكوخ الهش أن سقوط المطر نقمة عليه. وحتى الفيضان أو الزلزال، الذى يبدو أنه لا يمكن أن يفسر إلا بأنه نقمة، لا يصيب الأشرار وحدهم، وإنما تضيع فيه أرواح بريئة كما تضيع فيه أرواح آئمة، بل إن الأرواح البريئة - كما فى حالة الأطفال والمسنين مثلاً - ربما كانت أكثر تعرضاً للضياع فيه من الأرواح الآئمة... هذا فضلاً عن أن حادثاً مؤلماً كهذا لا يخلو من النفع لبعض الناس،

كمتهدى نقل الموتى مثلاً وهكذا تتباين الغايات التي يمكننا أن ننسبها إلى الظاهرة الواحدة، حسب مصالحتنا ووجهات نظرنا الخاصة، ويتضح لنا أن تفسير ظواهر الطبيعة على أساس غايات مستمدة من المجال البشرى هو تفسير باطل، لا يخلو من التخبط والتناقض. ولذا لم يكن من المستغرب أن يتخلى التفكير العلمى عن فكرة «الغائية» ويعدّه امتداداً للطريقة الأسطورية فى فهم العالم، وإن يكن التفسير الغائى للظواهر أشد خفاءً، وأصعب تفنيدها، من التفسير الأسطورى المباشر.

وهكذا أصبح العلم يقتصر، فى فهمه للظواهر الطبيعية، على الأسباب التي تودى إلى حدوث هذه الظواهر، أى على ما يطلق عليه اسم «العلل أو الأسباب الفاعلة»، وهى الشروط الضرورية التي لا يحدث الشيء إلا إذا توافرت، ولا بد إذا توافرت من أن يحدث الشيء. وهذا النوع من الأسباب يتعلق بالمقدمات التي تمهد لحدوث الظاهرة، والتي تسبقها فى الزمان. أى أن الماضى هو الذى يتحكم فى الحاضر، فى حالة الظواهر الطبيعية. أما فى حالة الظواهر البشرية، التي يمكن أن يكون للغايات وجود فيها، فإن «المستقبل» أيضاً، بالإضافة إلى الماضى، يمكن أن يكون سبباً للأحداث. فالإنسان لا يتصرف بناء على سوابق ماضية فحسب، بل يتصرف أيضاً لأنه يخطط لهدف أو لمشروع فى المستقبل. ولكن هذه صفة ينفرد بها الإنسان، ولا تعرفها الطبيعة، وربما كانت هى التي أعطت الإنسان مركزه الفريد فى الكون.

ثالثاً: التفكير الخرافى Superstitious Thinking؛

هو التفكير الذى يقوم على إنكار العلم ورفض مناهجه، أو يلجأ - فى عصر العلم - إلى أساليب سابقة على هذا العصر. والخرافة «جزئية» تتعلق بظاهرة أو حادثة واحدة. وتتعلق الخرافات بالتفاصيل، وهى قد تكون متعارضة أو متناقضة فيما بينها؛ لأن أحداً لا يحاول أن يوفق بين الخرافات المختلفة ويكون منها نظاماً أو نسقاً مترابطاً.

إن الفكر الخرافى ظل يعايش العلم فترة طويلة، وما زال يمارس تأثيره على عقول الناس حتى يومنا هذا. ولقد عاشت البشرية أمداً طويلاً وهى حائرة بين العلم والخرافة؛ لأن الخط الفاصل بينهما لم يكن فى البداية واضحاً كما هو اليوم. وخلال هذه الفترة كانت الأمور مختلطة ومستداخلة، وكان كثير من العلماء ممن يجمعون بين عناصر من الخرافة وعناصر من البحث العلمى فى مركب واحد لا يشعرون بأنه ينطوى على أى تناقض.

وكمثال من ميدان التنجيم وعلم الفلك، فإن ممارسة التنجيم كانت تتطلب معرفة واسعة بالحقائق الفلكية. «والأبراج» التي يقول المنجمون أنهم يعرفون بها الطالع هى أشبه ما تكون بخريطة كبرى للسما، تضم كثيراً من المعلومات الفلكية الصحيحة. واسم

التنجيم ذاته يفترض معرفة بالنجوم، ومن ثم كان تداخله مع علم الفلك. بل إن كبار الفلكيين كانوا في الوقت ذاته منجمين، وهذا ينطبق على العصور القديمة والعصور الوسطى الإسلامية والأوروبية، بل وعلى أوائل العصر الحديث أيضًا. فحتى كبلر ذاته، أعنى ذلك العالم الألماني العظيم الذي حدد المدارات البيضاوية للكواكب واهتدى إلى مجموعة من أعظم القوانين الفلكية الرياضية، كان يؤمن بالتنجيم ويمارسه، ولم يكن يعتقد أن ممارسته له تتعارض على أى نحو مع عمله العلمي الدقيق. بل إن السعى إلى جعل التنجيم والتنبؤ بالطالع أدق، ربما كان واحدا من أهم الأسباب التي حفزت العلماء على الاشتغال بعلم الفلك، والتي جعلت هذا العلم، الذي يتناول ظواهر تبدو بعيدة كل البعد عن اهتمام الإنسان على هذه الأرض، يصبح واحدا من أقدم العلوم البشرية عهدًا ومن أدقها منهجا. ولولا أن الحكام كانوا يحرصون على معرفة طالعهم، ويستشيرون المنجمين في قراراتهم المهمة لما أولوا علم الفلك ذلك الاهتمام وقدموا إليه ذلك التشجيع الذي أدى إلى نهوضه منذ وقت مبكر.

ولدينا مثل آخر في ظاهرة السحر. فقد تداخلت الممارسات السحرية مع الممارسات العلمية وقتًا طويلا. وبالرغم من أن السحر كان مبنيا على معتقدات خرافية لا صلة لها بالعلم، فقد كان السحرة يلجأون، في كثير من الأحيان، إلى التعامل مع مواد الطبيعة وعناصرها على نحو يؤدي بهم إلى الكشف عن كثير من أسرارها، مما دعا بعض مؤرخي العلم إلى النظر إلى السحر بوصفه ممهدا للعلم التجريبي، ولعلوم الكيمياء والأحياء بوجه خاص. ومع ذلك فقد نشبت معركة حامية بين العلم والسحر في مطلع العصر الأوروبي الحديث. ولم يكن رجال الكنيسة بمعزل عن هذه المعركة، وإن كانوا قد وقفوا موقفًا معاديا للطرفين معا: فالسحرة في نظرهم تقمصهم أرواح شريرة، ومن ثم كان من الواجب حرقهم، أما العلماء فهم ينادون بتعاليم مضادة لما تقول به الكنيسة، ومن ثم فمن الواجب اضطهادهم. وفي بعض الأحيان كان العلماء يتهمون بالسحر، حتى تكون إدانتهم أيسر، وبالفعل راح عدد غير قليل من الباحثين في العلوم الحديثة ضحية الاتهام بالسحر.

على أن هذا التداخل والاختلاط بين النظرة الخرافية والنظرة العلمية لم يدم وقتًا طويلا، بل أن معالم النظرتين قد أخذت تتضح بالتدرج، وبدأت الطريقة العلمية في النظر إلى الأمور تثبت تفوقها الساحق على الطريقة الخرافية، وذلك لسببين: أولهما أن فهم قوانين الطبيعة من خلال العلم يتيح للإنسان سيطرة حقيقية على ظواهرها، ويمكنه من تغيير مجرى حوادثها لصالحه، على حين أن النظرة الخرافية تجعله يقف من الطبيعة موقفًا سلبًا عاجزًا. وحين بدأت ثمار التطبيقات العلمية تصبح متاحة للجميع، وأثبت العلم بطريقة ملموسة قدرته على السيطرة على الطبيعة بطريقة لا يحلم بها الساحر ذاته، لم يعد هناك مبرر لبقاء الطريقة السحرية الخرافية.

وأما السبب الثانى فهو أن العلم قد أثبت أن نتائجه مضمونة، يمكن التنبؤ بها، على حين أن نتيجة السحر والخرافة غير مضمونة على الدوام. فحين يدرس العالم ظاهرة معينة ويتوصل إلى العوامل المتحكمة فيها، يستطيع أن يضمن استخدامها لصالح الإنسان بطريقة معلومة مقدما. أما إذا واجه هذه الظاهرة عن طريق أحجية أو تعاويذ سحرية، فقد يصل إلى النتيجة المطلوبة مرة، ولا يصل إليها عشرات المرات. والأدهى من ذلك أنه لن يكون قادرا حتى على التنبؤ بالحالة التى سيكون سحره فيها فعلا، وسط عشرات الحالات التى يعجز فيها هذا السحر. وهكذا أثر الإنسان العلم لأنه اكتسب ثقة فى نتائجه، ولم يعد الناس يلجأون إلى الخرافات -فى معظم الأحيان- إلا فى الحالات التى لا يكون العلم فيها قد أحكم قبضته على الظواهر، كما فى حالة الإصابة بمرض عضال لم يستطع العلم بعد أن يكتشف علاجا له.

والواقع أن هذه الحقيقة الأخيرة تشير إلى سمة مهمة من سمات التفكير الخرافى. فقد ذكرنا أن نتائج السحر أو الخرافة غير مضمونة، وأنها فى مقابل كل مرة تنجح فيها تخفق عشرات المرات. ومع ذلك فإن من أهم أسباب استمرار هذا اللون من التفكير، اتجاه العقل البشرى إلى التعميم السريع، بحيث يؤمن بفاعلية السحر أو الخرافة بناء على نجاح أمثلة قليلة جدا (وهو قطعا نجاح تحقق بالصدفة)، دون أن يختبر الحالات الكثيرة الأخرى التى أخفق فيها هذا الأسلوب.

ولما كان التركيز ينصب على الحالات القليلة التى تحققت، فإن الناس «يعممون» الحكم بحيث ينطبق على «جميع الحالات». وعلى هذا النحو تنمو لدى الناس، وتنتشر، أسطورة صاحبة الرؤية الصادقة، أو بصيرة عراف يستشف المستقبل، إلخ...

والواقع أن ظاهرة الفكر الخرافى أعقد من أن تكون مجرد بقية من بقايا عصور ماضية، يستطيع العلم فى مسيرته الظافرة أن يكتسحها ويمحو جميع آثارها. ذلك لأن الفكر الخرافى يظل متأصلا فى أذهان كثير من الناس حتى فى صميم عصر العلم، ويظل منتشرًا بين الناس حتى فى صميم عصر العلم، ويظل منتشرًا بين الناس حتى فى أكثر المجتمعات تمسكا بالتنظيمات العلمية. فالعلم والخرافة، وإن كانا يتميان إلى عصرين مختلفين، يظلان متعايشين فى نفوس البشر أمدا طويلا، وكأتهما طبقتان جيولوجيتان متراصتان الواحدة فوق الأخرى فى الجبل الواحد، وكل منهما ترجع إلى زمن مختلف. بل إن الشخص الذى نال من التعليم حظا رفيعا، قد يظل متمسكا بالفكر الخرافى فى كثير من جوانب حياته التى لا يمسه العلم مساسا مباشرا. وهكذا لا يكون اتباعه للمنهج العلمى فى المعمل أو المختبر أو جمعه حصيلة ضخمة من المعلومات العلمية -لا يكون ذلك

عاصما لذهنه من أن يؤمن في جانب من جوانبه، بالخرافات، ويرضى بتفسير للظواهر لا علاقة له، من قريب أو بعيد، بالمنهج العلمي الذي يجيد استخدامه.

وهكذا نجد في أكثر المجتمعات تقدما، بقايا من التعلق بالخرافة تتمثل في إعطاء مكان الصدارة، في كثير من الصحف، للحوادث التي تبدو خارقة للطبيعة، وفي استمرار ظهور أعمدة صحفية مثل «حظك هذا اليوم» أو قراءة الطالع من الأبراج، أو التشاؤم من الرقم ١٣، أو انتشار تعبيرات تحمل معنى خرافيا مثل «امسك الخشب»، إلى آخر هذه المظاهر التي تدل على أن التفكير الخرافي ما زال، في عصر الصعود إلى القمر، متشبثا بكثير من موافقه.

ولقد ظهرت تعليقات متعددة ومتباينة الاتجاه، تفسر استمرار تيار اللامعقول في مساره الخفى تحت سطح العقلانية الظاهرة للمجتمع الحديث، وإصرار الغيبيات على عدم الاختفاء من حياة الإنسان العصري. وربما كانت التعليقات النفسية أكثرها انتشارا. فهناك من يقولون أن الأحلام، في حياة الإنسان، مصدر دائم للخرافة، إذ أن الصور الخيالية، غير المترابطة وغير الواقعية، التي تظهر في الأحلام، يمكن أن تختلط بالواقع، وتكتسب في حياة الناس طابعا متجسدا يتخذ شكل الخرافة. وربما كان الأصل الأول لكثير من الخرافات راجعا إلى وجود شخصيات مريضة لديها استعداد أكبر للخلط بين الحلم والواقع، ولتأكيد الوجود الفعلي لأشباح وأرواح تراءت لها يالخاص في منامها. وقد ركزت مدرسة التحليل النفسى عند فرويد جهودها، في هذا الميدان، في بحث تأثير اللاشعور في رؤية الإنسان للواقع، وأسهمت بذلك فى استكشاف أسباب استمرار التفكير الخرافي فى عصر ينظم الناس حياتهم فيه على أساس من العلم. ذلك لأن الخرافة، فى ضوء التحليل النفسى، لاتظهر بوصفها شيئا ماضيا لم يعد له فى حياة الإنسان مكان، بل تبدو جزءا من التكوين النفسى للإنسان، يظل كامنا فى اللاشعور إلى أن تطرأ ظروف تصعد به إلى السطح الخارجى.

على أن التعلييل المستمد من مجال علم النفس، والتحليل النفسى بوجه خاص، ربما لم يكن كافيا إلا للإيضاح جانب واحد من جوانب مشكلة استمرار الفكر الخرافي فى المجتمع الحديث. فحتى لو سلمنا بالإيضاح الذى تقدمه مدرسة التحليل النفسى، سيظل علينا أن نعترف تلك الظروف التى تبعث الخرافة من أعماق اللاشعور إلى مستوى التفكير أو السلوك الواعى، ولا بد أن تكون هذه الظروف متمية إلى طبيعة المجتمع، ونوع القيم السائدة فيه، والعوامل الاجتماعية التى تتحكم فى تحديد هذه القيم.

إن الشعور بالعجز هو العامل الأساسي في ظهور الخرافة واستمرارها. وهذا الشعور يتخذ أشكالاً تختلف باختلاف البيئة والمصر، ولكن نتيجته دائماً واحدة، هي أن يلجأ الإنسان، في تعليقه للأحداث. إلى قوى لا عقلية تساعده على التخلص من المشكلات التي يواجهها تخلصاً وهمياً، بدلاً من أن تساعده على حلها أو حتى مواجهتها بطريقة واقعية.

ومن الممكن القول أن شعور الإنسان بالعجز كان يتخذ في العصور القديمة شكل العجز عن الفهم، والقصور في معرفة العالم المحيط به، ولذا كان يعلل الظواهر التي لا يفهمها تعليقات خرافية. أما في العصر الحديث، بعد أن توصل الإنسان إلى معرفة تتيح له إجابات علمية عن الأسئلة الأساسية التي كان يعجز من قبل عن فهمها، فإن المسألة لم تعد تتعلق بالعجز عن الفهم أو المعرفة، بل أصبح العجز يتمثل في عدم القدرة على التحكم الواعي في مسار المجتمع، وفي القوى التي تسيطر عليه، أي أنه أصبح عجزاً اجتماعياً. وهذا ما يعلل استمرار ظهور الفكر الخرافي في مجتمعات لا يمكن القول أن الجهل مخيم عليها، أو أن الفقر يطمس عقول الناس فيها. ففي كثير من البلاد الأوروبية، وفي الولايات المتحدة الأمريكية بوجه خاص، تنتشر مظاهر واضحة للتفكير الخرافي، تتمثل في «قراءة الطالع» التي تحدث أحياناً عن طريق أجهزة الكترونية معقدة (وهو مظهر واضح لتعايش العلم والخرافة معاً: الجهاز علمي متقدم، والهدف من استخدامه خرافي متخلف)، كما تتمثل في وجود جماعات تمارس أنواعاً من السحر (السحر الأسود) والطقوس الغريبة في قلب أغنى المجتمعات الصناعية. والتعليل المعقول لذلك هو أن الناس، برغم ما توافر لهم من معرفة وعلم، وما يتمتعون به من مستوى عالٍ للمعيشة، يعجزون عن فهم القوى التي تتحكم في مسار حياتهم، وينظرون إلى المستقبل نظرة قائمة، ويتصورون أن العالم تشيع فيه قوى شريرة وحتمية كثيفة تفرض على الناس أن يعيشوا في توتر وخوف دائم من المصير المجهول، وهي قوى لا يمكن محاربتها إلا بقوى أخرى من نفس نوعها.

على أن الأمر الذي ينبغي أن نؤكد، في هذا الصدد، هو أن ظاهرة استمرار الفكر الخرافي بأشكال مختلفة، في المجتمعات الصناعية المتقدمة، لا تشكل مع ذلك خطراً داهماً على المسار العام لهذه المجتمعات، بل إنها تظل على الدوام ظاهرة هامشية. فنوع الحياة التي تسود المجتمع الصناعي، حيث يحسب كل شيء وينظم بدقة وانضباط، وحيث لا يسمح أسلوب الإنتاج السائد بأن تظل هناك عناصر غير محسوبة أو غير متوقعة، وحيث تخضع الحياة اليومية ذاتها لنظام محدد لا مجال فيه للاستثناءات أو الانحرافات، ولذلك

فإن نوع الحياة هذا يشكل ضمانا مؤكدا يعصم المجتمع، فى مجموعه، من اضطراب التفكير الخرافى، مهما كانت درجة انتشاره على مستوى الأفراد أو الجماعات المنعزلة. ففى مثل هذه المجتمعات يظل المجرى العام للحياة خاضعا للعقلانية والترشيد والتخطيط المدروس، أما الميول الخرافية فتتخذ شكلا فرديا لا يؤثر على هذا المسار العام.

بل إن من الممكن القول، بمعنى معين، أن الحياة الصناعية المخططة الدقيقة هى ذاتها التى تفرض على مجتمعاتها من آن لآخر، اللجوء إلى ألوان من التفكير الخرافى. فانتشار الخرافات فى هذه البلاد هو فى أساسه «رد فعل» على العلم المتغلغل فى صميم كيان المجتمع، ومحاولة للتخلص من قبضة تلك العقلانية المحكمة التى تمسك بجميع جوانب حياة الناس، عن طريق بعث عناصر لاعقلية من مكنها اللاشعورى. أنه تعبير عن تمرد الشعوب الخاضعة للعقل على هذا العقل نفسه، ورغبتها فى الخروج عنه، وإن كان ذلك لا يتم إلا بصورة مؤقتة لأنها فى النهاية تعود إليه، ولاستطيع أن تتخلص منه بعد أن أصبحت كل جوانب حياتها تنظم وفقا له. إنها قفزة مؤقتة إلى الماضى البعيد عبر الحاضر، وربما كانت هذه العودة تساعدهم على تحمل الضغط والتوتر الذى تجلبه لهم الحياة الصناعية بإيقاعها السريع ونظمها الحتمية الصارمة. وهكذا يكون التفكير الخرافى، فى هذه الحالة، منبثقا من قلب التفكير العلمى والعقلى، ولا يفهم إلا فى إطاره. بل إن العودة إلى الماضى السحيق هى فى هذه الحالة نتاج للمجتمع الصناعى ذاته: إذ أنها تعبير عن الرغبة فى «التغيير»، وعدم القدرة على الاستقرار طويلا على حالة واحدة. وهذه الرغبة فى التغيير هى ذاتها جزء لا يتجزأ من طبيعة الحياة فى المجتمعات الصناعية المتقدمة. فمن سمات هذه الحياة أنها تغير إيقاعها بسرعة، وتجدد نفسها باستمرار وترفض الجمود والاستقرار، بل إن الرغبة فى التغيير تمتد عندها حتى إلى القيم الأخلاقية والاجتماعية ذاتها. ولذلك كان الابتعاد عن العقل والعلم، فى ظاهرة الفكر الخرافى، يتم فى حالة المجتمعات الصناعية المتقدمة فى إطار عصر العقل والعلم واستجابة لمقتضياته، وهو وضع تبدو فيه مفارقة واضحة، ولكنه يعبر بالفعل عن وضع الفكر الخرافى فى المجتمعات المعاصرة المتقدمة.

إن الحرص على تأكيد هذه الحقيقة يوضح، بصورة قاطعة، الاختلاف الأساسى بين وضع العالم الشرقى عموما، والعربى بوجه خاص، ووضع العالم الصناعى المتقدم بالنسبة إلى موضوع التفكير الخرافى. ذلك لأن هناك كثيرين فى البلاد العربية يحاولون التخفيف من تأثير ظاهرة انتشار التفكير الخرافى، عن طريق الإشارة إلى وجود ظواهر مماثلة فى البلاد المتقدمة. ومثل هذه المحاولة للتهوين من شأن الفكر الخرافى والتخفيف من خطره على مجتمعاتنا يعيها أنها تقف عند حدود السطح الخارجى للظواهر ولا تتغلغل فى

اعماقها. إذ يبدو ظاهريا أن الوضع متشابه في الحالتين (وإن كان مقدار انتشار الخرافات عندنا أعظم بمراحل منه في البلاد المتقدمة)، ولكن الحقيقة أن دلالة الظاهرة مختلفة في الحالتين تمام الاختلاف.

ففي حالة مجتمعاتنا يتخذ التفكير الخرافي شكل العناء الأصيل للعلم والعقل، ويمثل هذا العناء امتدادا واستمرارا لتاريخ طويل كان العلم يحارب فيه معركة شاقة لكي يثبت أقدامه في المجتمع. وإذا كان قد بدا خلال فترة قصيرة أن العلم تمكن من تأكيد ذاته في مجتمعنا العربي، فمن المؤكد أن ذلك لم يحدث على مستوى المجتمع كله، وأن العناء للعلم كان هو الغالب في بقية الفترات في تاريخنا. وهكذا فإن انتشار الخرافة يمثل، في حالتنا، تعبيرا عن جمود المجتمع وتوقفه عند أوضاع قديمة ومقاومته للتطور السريع المحيط به من كل جانب، والفرق واضح بين هذا الأسلوب في الفكر الخرافي وبين أسلوب تلك المجتمعات التي مرت بتجربة التفكير العقلى حتى أعلى مراتبها، والتي يحاول بعض أفرادها أن يرتدوا عن هذه التجربة «من موقع الاندماج فيها»، لا من موقع الجهل بها أو الخوف منها أو العجز عن تحقيقها. أى أن الفرق واضح بين الفكر الخرافي حين يكون تعبيرا عن جمود متأصل وتحجر على أوضاع ظلت سائدة طوال آلاف السنين دون أن يرغب المجتمع في تغييرها أو يجرؤ عليه، وبين هذا الفكر ذاته حين يكون تعبيرا -محدود النطاق- عن رغبة في التغيير يشعر بها مجتمع لا يستطيع أن يظل أمدا طويلا على حالة واحدة، حتى لو كانت هذه الحالة هي التفكير العقلى الرشيد.

وتلك مسألة نجد لزاما علينا أن ننبه إليها لأن بعض كتابنا، الواسعى الانتشار للأسف الشديد، يرددون نفس الحجج التي يقول بها أنصار التفكير اللاعلمى في الغرب، لكي يبرروا بها ابتعادنا، نحن الشرقيين، عن التفكير العلمى وعدم ثقتنا فى قدرات العقل. وهذا خطأ كبير، ومغالطة أكبر، إذ أن دوافعنا فى الابتعاد عن التفكير العلمى تختلف كل الاختلاف عن دوافع مجتمع مارس هذا التفكير قرونا عديدة، فى الوقت الذى لانزال فيه نحن نكافح من أجل الدخول لأول مرة فى عصر العلم الحديث.

على أننا ينبغى أن نمتعرف بأن أنصار الخرافة، سواء فى بلدنا أم فى خارجها، لا يقتصرون على تأكيد هذا النوع «المضاد للعلم» من الخرافات. فهناك نوع آخر يدعى الانتساب إلى العلم، ويستند على شواهد يزعم أنها علمية، ومن هذا القبيل الاعتقاد بوجود قوى خارقة لدى بعض البشر، كالاستشفاف عن بعد Telepathy، أو الأشكال المختلفة لما يسمى بالحاسة السادسة أو غيرها. وربما وصل الحماس بالبعض إلى حد تأكيد قدرة «العلم» على إثبات «تحضير الأرواح»- وهو للأسف أمر ليس بعيدا عن المألوف بين

بعض المشتغلين بالعلم، وكأنهم أصبحوا واثقين من أن الروح «شيء»، وأن هذا الشيء يمكن «تخصيره»، أى يمكنه أن يذهب ويجئ، وأن هذا الشيء الذى يذهب ويجئ يستطيع أن «يتكلم»، أو يؤثر فى أشياء «مادية»، كتشريك أكواب أو اسقاط منضدة، وهذا كله يستحيل لو لم تكن الروح بدورها شيئا «ماديا»، مع أن هذا يتناقض أساسا مع تعريف الروح.

والمهم فى الأمر أن هؤلاء الذين يتمسحون بالعلم لتأكيد هذه الخرافات يلجأون إلى أساليب لاتتوافر فيها شروط التجربة العلمية على الاطلاق: فالملاحظات التى يعتمدون عليها قليلة غير قابلة للتكرار، مع أن من أهم شروط التجربة فى العلم أن يكون من الممكن تكرارها أمام أى عدد من المشاهدين، وفى مختلف الظروف، وسواء أكان هؤلاء المشاهدين من المقتنعين أم من غير المقتنعين. ومن المعروف أن شهود هذا النوع من التجارب هم فى الأغلب من النوع الذى يتوافر لديه مقدما استعداد لتصديق نتائجها. هذا فضلا عن أن التجارب تتم دائما فى جو لا يسمح بالرؤية الواضحة، إذ أن الضوء دائما خافت، ولونه أحمر (وهو أكثر الألوان تعتيما للبصر)، والجو العام يجعل الإيحاء بأى شيء ممكنا.

أما إذا ووجه أنصار هذه الخرافات ذات المظهر «العلمي» بحجج قوية تثبت ابتعاد الأساليب التى يلجأون إليها عن أصول المنهج العلمى الصحيح، فإنهم يلجأون إلى سهم آخر فى جمعيتهم، وهو أن منهج العلم الحالى محدود، وأن العلم أصبح الآن يتقبل أشياء كثيرة كان يرفضها من قبل، وأنه -بالتالى- يمكن أن يعترف بهذه الظواهر الخارقة للطبيعة فى المستقبل. ومثل هذه الطريقة فى التفكير تفتح الباب، كما هو واضح، لكل الخزعبلات المخرفة، إذ يستطيع أى دجال أن يؤكد أن العلم إذا لم يكن يقبلها الآن فسوف يقبلها فى المستقبل. وواقع الأمر أننا لا نملك إلا هذا المنهج الذى أثبت أنه أفضل ما لدينا من أدوات المعرفة، وأنه مهما كان قاصرا عن بلوغ كثير من الحقائق، فإنه هو أضمن الوسائل لبلوغ «الحقيقة» ذاتها. وإلى أن يتوصل العلم ذاته إلى مناهج وأساليب أخرى أدق، فليس من حق أحد أن يتذرع بالتغيرات التى يمكن أن تطرأ عليه فى المستقبل، لكى يفرض علينا خرافاته، ويربطها زورا بعجلة التقدم العلمى.

فإذا أخفقت محاولات ربط الخرافة بالعلم، فإن أنصارها يلجأون إلى آخر أسلحتهم وأخطرهما على التفكير الشعبى، وهو الربط بين الخرافة والدين. وهكذا تراهم يستغلون وجود بعض الحقائق الدينية الغيبية، كالروح مثلا، ووجود بعض النصوص الدينية التى تتحدث عن السحر والحسد، إلخ، لكى يدافعوا بحرارة عن حقيقة الظواهر الخرافية، مؤكدين أن الدين نفسه يدعمها. وللأسف، هذا السلاح هو أخطر الأسلحة جميعا، لأنه

أولا يستغل عمق الإيمان الدينى من أجل تأكيد الفكر الخرافى، ولأنه يضع الدين -بلا مبرر- فى مواجهة العلم، ويضع عقول الناس فى مواجهة الاثنى معاً، فتقف حائرة بين عقيدة متأصلة فيها، وبين منهج علمى تثبت صحته على أرض الواقع العلمى فى كل لحظة.

وبعامة.. ليس هناك ما هو أضر بقضية الدين من هذا الربط بينه وبين الخرافة. ولقد حاولت الكنيسة المسيحية فى الغرب، منذ عصر النهضة، أن تسلك هذا الطريق المحفوف بالخطر، فكانت النتيجة هى ما نراه اليوم من انصراف الجماهير فى الغرب عن عقيدتها بأعداد كبيرة. والواقع أن الكنيسة كانت فى ذلك الحين تواجه تجربة جديدة كل الجدة، فلم يكن من المستغرب أن ترتكب خطأ مهاجمة العلم بحجة أنه يتعارض مع نصوص دينية (كما فى حالة قضية دوران الأرض و«ارتفاع» السماوات مثلاً)، ولم يكن من المستغرب أيضاً أن تضطهد الكنيسة -آنذاك- كثيراً من العلماء اضطهاداً معنوياً وجسدياً. ولكن الحصيلة النهائية لهذا كله كانت انتصار الحقيقة العلمية، واضطرار الكنيسة إلى التراجع عن مواقعها واحداً تلو الآخر، حتى أصبحت تدافع اليوم عن كثير من الأمور التى كان القول بها فيما مضى كافياً لاضطهاد صاحبها على يد الكنيسة ذاتها.

أما نحن هنا فى العالم العربى فلنا مضطرين على الإطلاق إلى أن نسلك هذا السبيل المحفوف بالخطر، لأننا نعيش فى عصر أصبح فيه الأخذ بالأسلوب العلمى فى الحياة مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى المجتمع. فلماذا إذن يحاول الكثيرون أن يعيدوا التجربة المريرة للكنيسة الغربية مع الخرافة وضد العلم؟ ولماذا لا تتكاتف الجهود من أجل دعم وتأكيد التفسير الدينى الذى يحارب الخرافة ويؤيد العلم؟ هذه مجرد أسئلة تشير الدهشة والاستنكار للتراجع المستمر إلى الخلف، الذى تتسم به مناقشاتنا لهذا الموضوع فى أيامنا هذه، بعد أن أصبحت صدورنا أضيّق، واتهاماتنا للمفكرين تلقى جزافاً، واحترامنا لأراء بعضنا بعض مفقوداً. ويبدو أن البعض يصرون على أن يعيدوا محنة الفكر العلمى فى عصر النهضة الأوروبية مرة أخرى فى بلدنا. ولكن الأمل معقود على أن تسود الحكمة ويغلب التعقل، فنذكر أن طريق العلم لا رجوع فيه إلى الوراء، وأن الدفاع عن الخرافة تمسحاً بالدين لن يضر قضية العلم كثيراً، ولكنه يسئ إلى قضية الدين إساءة بالغة.

خلاصة القول :

التفكير الخرافى هو العملية التى يلجأ فيها الفرد إلى تصور أحداث أو أشياء، أو التفكير بها، وربطها بروابط غير حقيقية ويرى بينها علاقة لاتبدو للآخرين. أيضاً،

يمكن النظر إلى التفكير الخرافى، بأنه اصطناع بعض الأفراد لأحداث أو أسباب لا تبدو مسببة أو تحدث صدفة أو بطريقة عشوائية فيقيم بينها علاقة سببية تفتقر إلى علاقة ذهنية مفهومة هو ما يسمى بالتفكير الخرافى.

ويستعمل مصطلح العقلية الخرافية حينما يكون للخرافة دوراً بارزاً فى تفسيرات الأحداث وتعليلها، وفى نقل المعلومات وهى التى تحاول تحقيق أهداف الفرد والمجتمع بأساليب بعيدة عن العلم والتفسير العلمى المنطقى.

ويعتبر (توب، 1991) التفكير الخرافى بالنسبة للبعض وسيلة من وسائل الصمود أمام الآخرين، فيعطى الفرد دافعاً للوقوف بشجاعة فى مواجهة غيره، فيما أورد فروزر (Fruzer) أن التفكير الخرافى هو تطبيق وهمى لترايط المعانى عن طريق المشابهة والاتصال يقوم على أمور غير عقلانية.

إذاً، التفكير الخرافى هو ذلك الذى يفسر الحوادث تفسيرات لا ترتبط بحقائق واقعية ملموسة، بل يعزوها إلى أسباب فوق طبيعية وعلى أساس غير عقلانى غامض فيه من الخيال نصيب، ويعتمد على الخرافة، والخرافة هى عقيدة أو نسق من العقائد قائمة على أساس صلة خيالية بين الأحداث غير قابلة للتبرير على أساس عقلى.

والتفكير الخرافى يبت فى الأمور بشكل حاسم نهائى وإن كان خاطئاً من وجهة نظر أخرى، وهذا يوضح الفرق الجوهرى بين الحقيقة العلمية النسبية، والحقيقة الخرافية التى تميل إلى التعميم والإطلاق، ومن هنا فالتفكير الخرافى يسير فى خط موافق للتفكير العلمى ولا يلتقى المنهجان لتباين واختلاف وجهتهما.

وعلى ما سبق ذكره، يمكن القول إن التفكير الخرافى يقوم على:

- * نسبة الظواهر الطبيعية إلى أسباب فوق طبيعية أو علل غير صحيحة.
- * ربط البدايات والنهايات ربطاً مباشراً.
- * افتراض صلة وهمية بين الأشياء والأحداث تستند إلى التصور والخيال.
- * الانتقاء الإدراكى، فلا يلاحظ المرء إلا ما يتوقعه أو يرغب به.
- * استبعاد النقد والاعتماد على المسلمات.
- * تناقض مع التفكير العلمى والحقائق الواقعية.
- * الجمود الفكرى ومقاومة الإقناع والتغيير.
- * السطحية فى التفكير.
- * المزاجية والانفعالية والتقلب فى التفكير.

رابعاً، التفكير التسلطى Authoratative Thinking

السلطة هي المصدر الذى لا يناقش، والذى نخضع له بناء على إيماننا بأن رأيه هو الكلمة النهائية، وبأن معرفته تسمو على معرفتنا.

والخضوع للسلطة أسلوب مريح فى حل المشكلات، ولكنه أسلوب ينم عن العجز والافتقار إلى الروح الخلاقة. ومن هنا فإن العصور التى كانت السلطة فيها هي المرجع الأخير فى شئون العلم والفكر كانت عصوراً متخلفة حلت من كل إبداع. ومن هنا أيضاً فإن عصور النهضة والتقدم كانت تجرد لزاماً عليها أن تحارب السلطة العقلية السائدة بقوة، ممهدة الأرض بذلك للابتكار والتجديد.

وأشهر أمثلة السلطة الفكرية والعلمية فى التاريخ الثقافى هي شخصية أوسطو. فقد ظل هذا الفيلسوف اليونانى الكبير يمثل المصدر الأساسى للمعرفة، فى شتى نواحيها، طوال العصور الوسطى الأوروبية، أى طوال أكثر من ألف وخمسمائة عام. كذلك كانت كثير من قضاياها تؤخذ بلا مناقشة فى العالم الإسلامى، حيث كان يعد «المعلم الأول»، وإن كان بعض العلماء الإسلاميين قد تحرروا من سلطته فى نواح معينة، ولاسيما فى ميدان العلم التجريبي.

وكرد فعل طبيعى للخضوع للسلطة الذى يوضحه الحديث السابق، إنبتق مفهوم التفكير التسلطى، وهو تفكير يقتل التلقائية، والنقد، والإبداع، ويمكن وصفه بأنه تفكير مرضى قد ترد أصوله إلى أساليب تنشئة طفولية متسلطة.

ويقصد بهذا النمط من التفكير، التفكير المغلق الذى يصف الإنسان الذى يتميز به الفرد فى توظيفه للمعلومات فى مواقف متنوعة ومتباينة، ويلاحظ من خلال التمسك بالأحكام المتطرفة التى تتصف بالثبات والجمود ومسايرتها، والميل إلى القبول المطلق أو الرفض المطلق مع مقاومة التغيير، وعدم تحمل الغموض فى المواقف أو الضغوط النفسية، وقد أورد ووكيش (Rokeach) أن الجمود يتمثل فى طريقة التفكير والسلوك التى تظهر مع أى فكرة بغض النظر عن مضمونها، وتتميز بنظرة سطحية للحياة، وعدم التسامح إزاء المعتقدات والأفكار المخالفة، واقتصار ذلك التسامح مع أصحاب المعتقدات والأفكار المشابهة.

إن شيوع نمط التفكير التسلطى يسهم فى إعداد وتحقيق:

- شخصيات ضميعة.

- أطفال إنسحابيين خجولين.

- أفكار معادية للتفكير العلمى.

وعليه .. يتسم الطفل فى الصف التسلطى بالسماة التالية:

٤ - متبلد الإحساس

١ - عنيف

٥ - سوداوى

٢ - عدوانى

٦ - انتهازى

٣ - متصلب

ويخلق الاتصال التسلطى جوا مشحونًا بالكراهية والحقد بين المرسل والمستقبل، وذلك قد يؤدي إلى ثورة المستقبل يومًا على المرسل والانتقام منه أو إلى تكاسل المستقبل فى أداء العمل والانطواء على نفسه .

ومثل هذا النمط من التفكير يظهر فى العلاقات العسكرية بين الأفراد ولا يساعد الفرد على التكيف الجيد لأنه يخلق فى نفسه الخوف، والخوف يقتل فيه الشقة بالنفس وحب المغامرة والجرأة والإقدام والمبادرة، فيتحول الفرد إلى ممثل خنوع أو إلى متمرّد هدام .

ولعل هذا يوضح العلاقة الاختلافية التساعدية بين نمط التفكير التسلطى وأنماط تفكير أخرى، مثل: التفكير الإبداعى والتفكير الناقد والتفكير العلمى والتفكير المنطقى .

كما سبق يمكن القول إن نمط التفكير التسلطى ينعكس من خلال:

- * عدم الرغبة فى اختبار البرهان الجديد بعد تكون الرأى .
- * تعطيل الحكم على الموقف حتى يكون البرهان كافيًا .
- * الميل السريع لرفض أى دليل أو مناقشات تتعارض مع معتقدات وأفكار الفرد .
- * الميل إلى تكوين معتقدات قوية، ومقاومة للتغيير بحدة .
- * الميل إلى إهمال الأفراد الآخرين المخالفين فى الاعتقاد والأفكار .
- * الميل إلى إثبات الذات بطرق مربكة لعملية الإتصال، مثل: رفع الصوت مع المتحدث .
- * الميل إلى إخضاع الآخرين له بصورة مطلقة^(٦) .

المراجع

- (١) ماكس بيروتز، ترجمة وائل أتاسي، بسام معصراني، ضرورة العلم . . دراسات في العلم والعلماء، سلسلة عالم المعرفة (الكويت)، العدد ٢٤٥، مايو ١٩٩٩، ص ٧، ص ص ١٢٤-١٢٦ .
- (٢) يَمْنَى طريف الخولي، فلسفة العلم في القرن العشرين . . الاصول-الحصاد، الآفاق المستقبلية، سلسلة عالم المعرفة (الكويت)، العدد ٢٦٤، ديسمبر ٢٠٠٠، ص ص ١٢-١٣ .
- (٣) فؤاد زكريا، التفكير العلمي، الطبعة الثالثة، سلسلة عالم المعرفة (الكويت)، ١٩٨٨، ص ص ٥٧-٦١ .
- (٤) ميثشو كاكو، ترجمة سعد الدين خرفان، روى مستقبلية . . كيف سيغير العلم حياتنا في القرن الواحد والعشرين، سلسلة عالم المعرفة (الكويت)، العدد ٢٧٠، يونيو ٢٠٠١، ص ١٣ .
- (٥) نبيل على، العرب وعصر المعلومات، سلسلة عالم المعرفة (الكويت)، العدد ١٨٤، أبريل ١٩٩٤، ص ص ٣٥-٣٧ .
- (٦) نايفه قطامي، تعليم التفكير للمرحلة الأساسية، عمان (الأردن): دار الفكر، ٢٠٠١، ص ص ٥٨-٦٠ .